النخبة العربية والقمع الذاتي

الفضل شلق

النخبة هي الفئة الاجتماعية التي تصوغ وعي الأمة وتقودها. هي التي تتلقى مشاعر الأمة وآمالها التابعة من حاجاتها الراهنة والمستقبلية والمتأثرة بتاريخها وتراثها، تتلقاها وتحولها إلى وعي، وتحول الوعي إلى ارادة وتحقق الارادة في انجازات. إن النخبة إذ تصوغ وعي الأمة تنقل كل ذلك من لا وعي الأمة الموضوعي إلى حيز الوعي الذاتي. والنخبة إذ تقود الأمة فهي تنقل نشاطها، في المقابل، من حيز العمل اليومي الغارق في الجزئيات الى مستوى العمل الارادي الفاعل النابع من رؤية شمولية.

الوعي هو مجمل أفكار الأمة التي تتشكل في منظومة تحدد رؤيتها لنفسها وللعالم، هو علاقة الأمة بذاتها وبالعالم. هو حصيلة تراكم الأفكار وأساليب الممارسة والتطبيق، والتراكم عملية تاريخية. فالوعي حصيلة التراكم التاريخي للأفكار وأساليب العمل. لكنه في الوقت نفسه مصدر الفعل والممارسة. فهو موضوعي الطابع لأنه حصيلة تراكم تاريخي لعدد كبير من الناس، وهو أيضاً ذاتي الطابع لأنه مصدر الفعل والممارسة للأفراد والجماعات. هو بالمعنى الأول عملية علمية تتكون نتيجة تراكم التجارب والاستدلالات، وهو بالمعنى الثاني مجموع أحلام وأخيلة تكوِّن خيارات محددة للمستقبل.

إن معيار نجاح أو فشل الأمة هو قدرة النخبة على لملمة الأمة وقيادتها،

ومعيار النخبة وعيها بمقدار ما يكون صحيحاً مطابقاً أو وهمياً، ومعيار الوعي النهائي هو القدرة على الانجاز. لكل أمة أهداف، ومعيار النخبة والوعي يتحدد بالقدرة على تحقيق هذه الأهداف. نعطي مثلاً على ذلك أحزابنا التي تشكل الجزء الأكثر فعالية من النخبة في المجتمع. كثيراً ما يتردد القول أن برامج الأحزاب صحيحة ولا خلاف عليها لكن المشكلة في التطبيق والممارسة، علماً بأن برنامج الحزب هو إطار الوعي الذي يتحدد كدليل للعمل والممارسة. ونحن نعتقد بأن أخطاء الممارسة لدى الأحزاب مصدرها قصور الوعي. فالأحزاب فاشلة لأن وعيها وبرامجها خاطئة.

وإذا أردنا التعميم نقول أننا ننتمي الى الأمة العربية، وأننا كأمة مهزومون أمام تحديات العصر وأمام اسرائيل وعلى صعيد الانتاج، كما أننا فشلنا في تحقيق الحد الأدنى من الشروط الضرورية لكرامة الانسان. إن الهزيمة الأعمق تكمن في فشلنا في تحقيق وحدتنا القومية، وكان ذلك مصدر المصائب التي حلت بنا. فالهزيمة هي الحقيقة الأساسية في وجودنا المعاصر. وفي كل مرة كنا نصاب فيها بهزيمة كنا ندعي أن ذلك فشل للأنظمة، فكأننا نبرىء أنفسنا ومجتمعنا. نحن نرى الدولة كياناً خارجاً عن المجتمع (بمعنى أنها ليست تعبيراً عنه وحصيلة لتفاعلاته الداخلية)، ومهما كنا نرى أن وجودها ضروري إلا أننا دائماً نضع اللوم على الدولة، على ذلك الكائن الخارجي المشبوه. مؤدى ذلك انه ما دام اللوم يقع على عاتق الهياكل الخارجة عن مجتمعنا، فالمجتمع بخير وعافية ولا لزوم لإحداث التجديد والتغيير فيه. هذا المنطق يتناسب مع مقولة أن الغرب مادة والشرق روح، والروح أبدية مطلقة كانت وما تزال مضيئة منيرة ولا غبار عليها. وننسى أن هذه الروح هي المهزومة أمام روح اقتحامية منتصرة هي روح الغرب التي حققت «مادة» تسيطر بها على العالم.

توالد البنى الفكرية

إن المهمة الأولى للنخبة هي انتاج الافكار تعبيراً عن مشاعر المجتمع وحاجاته الروحية. فالأفكار إما أن تكون تعبيراً لاحقاً عن مشاعر وحاجات

متجددة ومتغيرة باستمرار، أو تكون دافعاً مبادراً في صنعها وتجديدها. فهما يتواكبان بدرجة أو بأخرى في مجتمع يتجدد ويتغير ويتقدم. وفي مجتمع متخلف تكون الافكار إما متخلفة عن تقدم حاجات المجتمع أو تكون كابحة لها.

والمجتمع الذي تتوالد بناه وتكرر نفسها، من دون تجديد، مجتمع عاجز، ذلك أن العالم يتغير ويتقدم باستمرار، ومسيرة التقدم لا تمهل أحداً. المجتمع العاجز عن التقدم ينتهي إلى العزلة والدوران حول نفسه لأنه يخالف سنن وقوانين العالم. والعزلة والدوران حول الذات يقودان الى المنفخة والتباهي بالذات من دون أن تكون هناك مسوغات موضوعية لذلك. وهذا معناه فقدان التوازن والخفة والضعف، أي الهزيمة أمام كل هزة تصيب المجتمع وأمام كل هجوم يواجهه.

تعوَّدنا أن نسمع تعابير مختلفة عن الغرب المادي والشرق الروحي. وقد قبلنا ذلك لتعزية أنفسنا أمام هزائمنا المتواصلة. لكن ذلك لا يلغي حقيقة أن الغرب هو مادة وروح هذا العصر. وأن الشرق فقد روحه منذ زمن بعيد، على رغم أنه كان لفترات طويلة مادة العالم وروحه.

قبل أن يتم الرسول (ص) سيطرته على شبه الجزيرة فرض على أتباعه الهجرة من شبه الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي. فالهجرة ليست فقط الانتقال من مكة الى المدينة، انها بالمعنى الأوسع والأشمل هجرة من النطاق المحلي الى الكوني. والهجرة الى العالم الخارجي معناها اعطاء الأولوية للصراع الخارجي على الصراع الداخلي. فالصراع الخارجي هو ما يوحد الأمة ويخفف من آثار التناقضات الداخلية، وهو ما يحقق الصلة بين الأمة والكون الخارجي. وعندما قيل للرسول أن هناك عدداً من المنافقين، سعى الى تأليف قلوبهم بالعطاءات. وبدل أن يستنزف الرسول جهود الأمة في صراعات داخلية ضد المنافقين، وجه اتباعه لخوض حروب خارجية ضد الكفار. هذا كان البند الأساسي في مشروعه لبناء دولة موحدة ومجتمع جديد.

أما الآن، فالاسلاميون المعاصرون يعطون الأولوية للصراع ضد المنافقين

في الداخل على الصراع ضد الكفار في الخارج. فإيران التي حملت لـواء الوحـدة الاسلامية خاضت حرباً ضروساً ضد العراق، وهـذه الحرب هي حـرب داخلية (ضـد المنافقـين) حسب منـطق الثـورة الايـرانيـة. والجهـاد الاسـلامي (وريث الاخـوان المسلمين) في مصر يكـاد يكـرس كـل جهـوده لتـطبيق الشريعـة، أي للصراع ضد المنافقـين. يكاد ينسى الصراع ضـد اسرائيل وضـد هيمنة الغـرب الأمبريالي. وبدل أن يكون لديه عـداء سياسي للغـرب نجده يـركز جهـوده على العداء الثقافي للغرب ويهادنه سياسياً بحجة مكافحة عملائه في الداخل.

أما الجيل السابق من ثوريين، قوميين كانوا أم يساريين، فكان يحـاكم عبد الناصر على أساس الأوضاع الداخلية متنـاسياً أنـه يخوض حـرباً فعليـة متواصلة ضد اسرائيل والغرب الامبريالي. كان ذلك الجيل يحكم سلبيـاً على عبـد الناصر على أساس أن نظامه اصلاحي وغير ديمقراطي. هـكذا كان الثوريون القوميـون واليساريون أيضاً يعطون الأولوية للصراع الداخلي على الصراع الخارجي.

ومن ناحية أخرى نجد الاسلاميين الأصوليين الآن، مثل الثوريـين قبلهم، غير قادرين على استخدام النص استخداماً عقلانياً واعياً فكلاهما قاصر عن فهم مغزاه التاريخي أو معناه المطلق.

الثوريون القوميون العرب استخدموا مفاهيم أسـاسية مثـل الأمة والـوحدة والعـروبـة وعملوا من أجلهـا. لكنهـا بقيت، عـلى رغم صحتهـا وضرورتهـا، عنـاوين هشة ضحلة المضـامـين. فـالأمـة في نـظرهم ليست مجتمعـاً ذا تـاريـخ وسيرورة مستمرة، وتجدد وتغير دائمين. ولذلك لم تستطع أحزابهم رسم برامـج تؤدي إلى نتائج مـرضية ولم يستـطيعوا تحقيق أي من أهـدافهم على رغم التـأييد الشعبي الواسع لهم في فترة من الفترات. ومـا نسمعه يـتردد على لسـان كثير من الناس أن برامج الاحزاب هي في معظمها صحيحـة على العمـوم لكن الاخطاء هي في التطبيق هو قـول غير صحيـح. فالعلة في الأسـاس هي أن البرامـج التي رسمهـا الثوريـون كانت خـاطئـة لأنها صـدرت عن وعي قـاصر غـير تـاريخي، والعجز في التطبيق كان نتيجة حتمية لذلك.

وعندما أحس الثوريون القوميون العرب بفشلهم وعجزهم لجأوا الى الماركسية وأساءوا استخدام نصوصها أسوة بغيرهم من الماركسيين القدماء. فكانت الماركسية بالنسبة الى هؤلاء جميعاً مجموعة استنتاجات مفرغة من سياقها التاريخي. هم لم يجدوا في الماركسية انتاجاً فكرياً غربياً نبع من تراث أوروبا واستند الى النتائج العلمية التي كانت متاحة آنذاك. وبالتالي فهي (أي الماركسية) يمكن تجاوزها في ضوء المستجدات العلمية في مختلف العلوم الانسانية والمادية. والأهم من ذلك، كانوا وما يزالون، يستخدمون الشعارات والنصوص لرؤية واقع الأمور من دون أن يحاولوا دراسة التاريخ الفعلي واستخراج النتائج والعبر منه لاستخدامها في برامج تنفيذية تفيد الأمة. النص عندهم ليس مسألة وليس تعبيراً عن اشكالية تاريخية. لذلك كان فكرهم غير نقدي. وكل ذلك يناقض المبادىء الأساسية للنظرية التي يعتنقونها، وهي التي قامت على اعتبار النظرة التاريخية والموقف النقدي منطلقين أساسيين.

في المقابل نجد الاسلاميين الأصوليين الآن يجعلون النقطة المركزية في دعوتهم تطبيق الشريعة. وهم أيضاً ينكرون التاريخ والتغير، على رغم انهم يقرون بالناسخ والمنسوخ، ولا يستطيعون تقديم التفسيرات الوافية عن أسباب الاختلافات الفقهية على رغم وحدة النص القرآني، وينكرون أن هذه الاختلافات نجمت عن اختلافات في الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية للفقهاء والمفسرين، ويصرون على أن يروا النص بمعزل عن السياق التاريخي للأمة، بل ينكرون التاريخ برمته، ويعلنون ذلك اعلاناً واعياً.

الدين، بمعنى ما، هو دليل عمل، والشريعة تعكس الاطار الروحي للروحية الدينية. هي ليست مجموعة قوانين محددة. هي اطار روحي وذهني ومنهجية معينة تعطينا نتائج مختلفة في ظروف مختلفة. وقد عجز الاسلاميون الأصوليون عن صياغة برنامج سياسي للأمة لأن منهجيتهم غير تاريخية ووعيهم غير نقدي. وما يمنعهم من ذلك هو اعتبارهم لقدسية النص في الوقت الذي يضطرون فيه لممارسات غير قدسية. لا يستطيعون الفصل بين النظرية والممارسة، ولذلك فإن فكرهم يخلو من التنظير، وصولاً الى الغاء الفكر عينه. إن اشكالية

النص والتأويل، واشكالية النظرية والممارسة، غائبتان عن تفكيرهم. فلأنهم يهملون التناقضات يجدون أنفسهم مضطرين لانكار التغيير وبالتالي لالغاء التاريخ.

إن شعار تطبيق الشريعة الذي يطرحه الأصوليون الاسلاميون الآن هو تكريس لمبدأ اعطاء الأولوية للصراع الداخلي على الصراع الخارجي. وهذا مخالف لسنة الرسول. يضاف إلى ذلك أن هذا الشعار يستخدم لقمع الناس وتغيير نمط معيشتهم من دون اقتناع منهم، فالشريعة عندما تؤخذ من زاوية وحيدة الجانب وتفرض على المسلمين الآخرين الذين لا غبار على ايمانهم وتعلقهم بالاسلام تكون مجرد شعار قمعي. فالمقصود من تطبيق الشريعة في نظرهم ليس فهم النص الاسلامي واستيعابه كي يكون دافعاً روحياً واخلاقياً بل هو اجبار الناس كي يعيشوا حسب النمط الذي يفرضه أصحاب الشعار. هم يريدون أن يجعلوا من أنفسهم مثلاً أعلى للناس من دون حوار أو برهان. بل أن الأمر أكثر من ذلك. فهم عندما يدعون تمثيل الاسلام والحديث باسمه، وبدعوة أولية، يفعلون ذلك بطريقة حصرية فيتماهون مع الاسلام ويصبحون هم المسلمين الوحيدين، ويواجهون المجتمع الاسلامي كله بحاكميه ومحكوميه باعتبارهم جميعاً موضع تهمة، وينبغي فرض اسلامهم على كل الآخرين.

الهزيمة والتقنية

هناك فكرة سائدة في مجتمعنا مؤادها أن التكنولوجيا الحديثة ضرورية لتقدم المجتمع وخلاصه. هذه فكرة صحيحة لكنها تخفي وراءها موقفاً فعلياً لصالح الممارسة في مواجهة النظرية.

منذ مطلع القرن التاسع عشر، عندما بدأنا نشعر شعوراً عميقاً بالصدمة إزاء هيمنة الغرب، وعندما بدأنا نرى مجتمعنا يتهاوى ويتفتت أمام ضربات الغرب، بدأنا نعتمد الحلول المرتكزة على استخدام التكنولوجيا الحديثة. لكن غاب عن ذهننا أن الحاجة الكبرى ليست مجرد استيراد التكنولوجيا الحديثة بل تعلم الثقافة والروحية الغربية التي انتجت هذه التكنولوجيا.

ذهلنا بانجازات الغرب فأحببنا تقليده، وهذا ليس خطيئة أو خطأ، فالمشكلة هي أن تقليدنا للغرب اقتصر على بعض الجوانب والنتائج وغابت عنا حقيقة ان التكنولوجيا هي وليدة روح الغرب وثقافته، بما في ذلك من ليبرالية وديمقراطية واشتراكية وفيودالية وكنيسة وامبراطوريات وجمهوريات، وانها جاءت نتيجة تطور تاريخي، أي سيرورة، بدأت في رحم المجتمع القديم وتقدمت عبر مخاضات عسيرة ونضالات طويلة. أردنا الحلول السهلة، وهي أن ننعم بنتائج التكنولوجيا الغربية من دون بذل أية معاناة في سبيل انتاجها. ولم تساعدنا الثروات المنجمية الضخمة على تغيير تلك النظرة. اقتنينا السيارات والطيارات والأبنية المغلفة بالرخام والمكيفة بأحدث الأساليب والمفروشة بالموكيت من دون أن نسعى لبناء مجتمع ينتجها. ذلك لأننا خفنا من روح الغرب، خفنا أن يؤدي التطور التاريخي لبلادنا أن تفلت الأمور من يدنا. حتى الجنس نستورده. رجالنا يخبئون نساءهم في البيوت وراء الحجاب ويكثرون الرحلات الى أوروبا للتحرر من القيود التي يفرضونها هم في الداخل.

باختصار جعلنا من التكنولوجيا آلهاً آخر. دخلنا في جاهلية أخرى لها أصنامها العصرية فنحن لا تهمنا النظرية. بل تهمنا الممارسة فقط، ولا يهمنا التاريخ بل الحاضر فقط، اسئلتنا دائماً صغيرة والأجوبة دائماً بسيطة. علماً بأن الشعب الذي تكون أحلامه صغيرة يصل الى انجازات أصغر.

التمييز بين العلم والتكنولوجيا هو في بعض جوانبه تمييز بين النظرية والممارسة. العلم يطرح اسئلة كبيرة وينشد أجوبة كبيرة ولا يهمه إذا كانت هناك نتائج مباشرة للاشكاليات التي يطرحها ويحاول الاجابة عليها. العلم الحقيقي هو معرفة في سبيل المعرفة، على أساس أن المعرفة بتراكمها وبما يؤدي اليه ذلك من شمولية يؤدي حتماً للسيطرة على قوى الطبيعة، تدريجياً بالطبع.

التكنولوجيا تنشد المعرفة في سبيل اجابات مباشرة ذات منفعة مباشرة. ومنهجيتها تقوم على استخدام نتائج العلم في المعرفة لتركيبها في أسلوب يساعد على انتاج ما ينفع الناس في آلات انتاج واستهلاك. فالعلم يختص باكتشاف

المبادىء والتكنولوجيا تختص باستخدام هذه المبادىء في سبيل الانتاج. العلم يسعى وراء المعرفة كمعرفة والتكنولوجيا تسعى وراء المعرفة كوسيلة لشيء آخر. على هذا الاساس يمكن القول أن العلم مجاله نظري والتكنولوجيا مجالها تطبيقي يتعلق بالممارسة.

والتقدم التكنولوجي الحقيقي غير ممكن، أو على الاقل يفتقد الجدية والاستمرارية، إذا لم يكن مواكباً لتقدم مواز على الصعيد العلمي النظري. التقدم التكنولوجي لا يعدو أن يكون مظاهر كاريكاتورية إذا لم يكن حصيلة تقدم علمي نظري.

يصف بعض المفكرين المجتمع الأميركي المعاصر بأنه مجتمع يغلب عليه الطابع التقني. وربما تكوَّن التباس لدى القارىء بالشبه بين مجتمعنا ذي النزعة التقنية والمجتمع الأميركي التقني الطابع. لكن لا مجال للالتباس هنا، ذلك أن الطابع التقني في المجتمع الأميركي جاء في أعقاب ثورة صناعية وعلمية هائلة، أما نحن فالنزعة التقنية عندنا كاريكاتورية لأننا لم نعرف لا الثورة الصناعية ولا العلمية. لذلك فإن لدينا الآن في مختلف اقطار الوطن العربي عدداً كبيراً من الجامعات التي تخرج أعداداً غفيرة من المهندسين والتقنيين والاطباء والمحامين، لكن الكفاءات التي يتمتع بها هؤلاء أقل من المطلوب بكثير. وما زلنا نستعين بذوي الكفاءات من الخارج عندما نريد عملاً أو خدمة هامة في أي من هذه المجالات. إن أحدى أهم المشاكل التي نواجهها هي أن معظم طلابنا يريدون دراسة التخصصات التكنولوجية (بسبب القدسية التقنية في أذهانهم) لكنهم ما أن يتخرجوا حتى ينضموا الى صفوف البطالة المستترة، فهم حتى عندما يعملون في وظيفة، في مهنة، لا يستطيعون القيام بعمل منتج في مجال تخصصهم لضعف كفاءتهم أولاً ولقلة مجالات العمل ثانياً.

القمع الذاتي

قلنا أن النخبة العربية لم تقد الأمة بنجاح، والدليل هو الهزيمة، وأنها لم تستطع أن تنتج فكراً ابداعياً مجدداً بل كانت تكرر نفسها باستمرار، وأن طابع

فكرها تقني يرتكز على إعطاء الأولوية للممارسة ويرفض التنظير. ونحن نعتقد بأن وراء هذه العلل علة أخرى تشكل كابحاً لنمو النخبة ووعيها، وهي القمع الداخلي، أو الذاتي.

عندما يجري الحديث عن القمع في مجتمعنا يكون المقصود عادة الدولة وأجهزتها. صحيح أن الدولة في مجتمعنا هي دولة استبدادية قمعية، لكن هناك قمعاً أشد وأدهى وهو القمع الذي نقوم به بأنفسنا ضد أنفسنا. النخبة العربية تقمع نفسها قبل أن تقمعها الأنظمة. والقمع الذاتي هذا هو الذي أدى إلى نشوء أنظمة تمارس القمع الخارجي على النخبة وبقية الناس.

إن ارتكاز النخبة العربية على الممارسة والاقلاع عن التنظير يخفي وراءه اقتناعاً بأن النظرية الجاهزة هي الفكر الموروث. فالتراث له قدسية أبدية (Fetishism) متمكنة من اذهان النخبة العربية. وهذا ما يجعل النظر الى التراث ممكنا في حدود الإحياء لا النقد. وكثيرون منا يعتقدون بأن إحياء التراث هو مسألة جمع المخطوطات وطبعها، بعد تحقيقها، ونشرها كي يقرأها الناس ويستنيروا بهديها. إحياء التراث بهذه الطريقة يعتبر ضرورياً من أجل تعميق الهوية العربية الاسلامية.

لكن ذلك يوقعنا في مأزق لأن احياء التراث من دون تجاوزه يعني قتله. فالحياة عملية نمو مستمرة، والإحياء غير ممكن من دون التجاوز، والتجاوز غير ممكن من دون النقد، والنقد غير ممكن من دون فهم واستيعاب. فإحياء التراث بنقله كما هو من دون فهمه نقدياً مجدداً يعني ايقاف الزمان وقتل امكانات النمو، بل قتل التراث نفسه، علماً بأن التراث ذاته نشأ حصيلة تطور وفهم ونقد واستيعاب وتجاوز.

النخبة العربية التي يطربها تعبير إحياء التراث هي نفسها غير مطلعة على التراث. بل انها تتجنب ذلك. فدراسة التراث في نظرها تنظير لا لزوم له والمطلوب هو الممارسة. هكذا تنقلب الممارسة الى هدف ومثل أعلى وتلغى النظرية، لما كانت النظرية لا يمكن استنباطها وفهمها سوى على أساس التاريخ

(التطورات السابقة) والوعي التاريخي، فالمؤدى هو الغاء التراث كأداة وعي متجددة، ونحن ما نزال نقرأ تراثنا من خلال المستشرقين نتيجة عجز مثقفينا وكتابنا عن مضاهاتهم.

النخبة العربية تعتبر التاريخ سلسلة حوادث مشبوهة، فتلغي التاريخ. الاسلام صنع امجاد الأمة العربية، ومرحلة الفتوحات هي المثل الأعلى، وهي محط عواطفنا واعتزازنا. لكن ثلاثة من الخلفاء الراشدين ماتوا قتلاً. والسلالات العربية التي حكمت بعد ذلك اغتصبت الحكم وكانت مشبوهة في شرعيتها. وبعد ذلك جاءت سلالات غير عربية فحكمت وكانت أيضاً مشبوهة لدرجة أكبر في شرعيتها. التاريخ يصبح انحطاطاً لمرحلة مجيدة زاهية، فلا يمكن التعامل معه بعقل بارد، لذلك يتم تجنبه.

تراثنا هو تراث قومي وتراث ديني في آن. وهذا الأمر يكمن في أساس المشكلة. فما دام التراث ذا طابع ديني لا يمكننا أن ننظر اليه من دون اعتبارات الحلال والحرام. والقدسية التي تضفى عليه تجعل من الصعب فهمه واستيعابه بمنهجية نقدية. لذلك يغلب على وعي النخبة الاتجاه النقلي وليس العقلي. وربما برر البعض ذلك في هيمنة الاتجاه النقلي على وعي الأمة في ظروف كانت الأمة فيها تخضع لهجمات وتهديدات خارجية مستمرة، وكان عليهاأن تحافظ على ما لديها من دون الخوض في حوارات وصراعات داخلية، وان الأمة ما تزال على هذه الحالة، لكن بشكل اسوأ حتى اليوم. لكن هذا التبرير المحافظ يخفي حقيقة ان الاكتفاء بما لدينا من أفكار ووعي يجعلنا نزداد تخلفاً في وقت يسير العالم فيه بسرعة. والهزائم التي أصابتنا حتى الآن برهان على خطأ هذا التبرير.

ما زالت النخبة العربية ترتطم بحاجز القدسية الذي يحجب عنها الرؤية التاريخية ويجعلها تكتفي بالممارسة من دون النظرية. ترسخ القدسية التراثية الاستسلام الفكري المرتاح. وهي تحول دون ظهور نزق فكري يخرج عن المألوف ليجدد ويبدع. نقول النزق الفكري ولا نظن اننا مغالون.ولو كان العرب المسلمون الأوائل من دون نزق في الرؤية لاستسلموا للمألوف ولم يخرجوا من

شبه الجزيرة العربية ويفتحوا العالم، علماً بأن ميـزان القوى العسكـري آنذاك لم يكن في صالحهم.

غياب النزق الفكري هو تعبير آخر عن اعـادة تكرار وتـوالد البنى الفكـرية من دون تجديد. ألا نلاحظ أننا ما زلنا منذ قرنين نراوح مكاننا نتلقى الهزيمة تلو الأخرى؟ وما يدعو للسخرية اننا نعتبر القرن الماضي قرن نهوض فكري، ونقـرأ العـديد من الكتب والمقـالات حول عصر النهضـة هذا. ويـطرح هؤلاء الكتاب أمـامنا أفكـار الطهـطاوي والأفغـاني وعبـده ورشيـد رضـا والكـواكبي وصروف والشميل واليازجيين والبساتنة وعازوري وغيرهم. ولا نجد لـديهم سوى أفكـار مكـررة ومبتورة، وعـلى رغم ذلـك نسميهم عصر نهضـة. وبعـد مئتي عـام من النهضة ما زلنا نقرأ أهم الكتابات عن مجتمعنا وتاريخنا على يـد المستشرقين، ومـا زلنا عاجـزين عن انتاج مـا نستهلك، ونلهث وراء الدول الكـبرى لحل أمـورنا الداخلية أو لرد يهود اسرائيل عنا.

إن القمع الذاتي الذي تمارسه النخبة على نفسها يجعلها عاجـزة عن امتلاك القدرة على تكوين وعي شمولي كوني. لقد كـان الاسلام مشروعـاً كونيـاً اخرج الأمة العربية من قوقعتهـا على نفسهـا لتنفض عن نفسها الـوعي المحلي وإثبـات كونه مشروعاً كونياً يتجلى في أنه سعى إلى تأسيس مجتمع جديد ودولة عـلى مدى العـالم. كانت لـدى العرب آنـذاك روح اقتحاميـة بـدأت عـلى صعيـد الـوعي وامتدت الى الممارسة. فالعرب حملوا لواء الدعوة التي كانت بمثابة برنامج التنفيـذ للوعي الجديد الذي تكون لديهم.

فالنخبة عندما تغرق في تفاصيل الحياة اليومية وتكتفي بالمحاولات المحكومة عليها بالفشل سلفاً لامتلاك التكنولـوجيا الحـديثة من دون تحـديث روحي وقيام وعي جديد؛ هـذه النخبة تضـطهد نفسهـا وتتخـلى عن المهمـة التي لا مسـوغ لوجودها إلا من أجلها. إنها لا تترك المجتمع من دون قيـادة وحسب، بل تلغي دورها بنفسها.

لقد درج الكثيرون على اعتبار الالتزام، التزام المثقف بمجتمعه، مجرد التزام

سياسي بهذا الاتجاه أو ذاك. هذا جانب هامشي من المسألة. المسألة الاساسية هي أن التزام النخبة بمجتمعها لا يكون حقيقاً من دون أن تكوّن النخبة وعياً جديداً يعيد تشكيل الأمة ويدفعها الى الأمام. وإذا كانت المعرفة خيراً مطلقاً، فإن الالتزام بالمعرفة يكفي لتكوين ذلك الوعي، ولا شك في أن كل معرفة سلطة. لكن السلطة المعرفية تختلف نوعياً في سائر المجتمعات عن السلطة السياسية. وقد انصب اهتمامنا في هذه الكلمة على بيان الأوهام التي سيطرت على النخب في مجتمعاتنا منذ قرن ونيف: انها أوهام السلطة الثقافية المستندة إلى أوهام حول طبيعة الثقافة ودورها الاجتماعي والسياسي. وستبقى المسلمات الخاطئة والأوهام النخبوية بين المثقفين العرب ما بقيت ضياعات الأمة وانحطاطاتها، وما بقي مشروعها القومي الكبير رهينة الخوف والشرذمة وجدل الهوية والتوازنات الدولية والاقليمية.

إن تجديد المشروع التاريخي للأمة رهن بقدرة النخبة العربية على رفض الايديولوجيا التكنولوجية وامتلاك نظرية شمولية تقرأ تاريخ الأمة والعالم، ورهن بقدرة النخبة على التجديد الروحي والثقافي وانتاج الافكار الكبرى. ما دامت النخبة عاجزة عن انتاج أفكار كبرى ستبقى أسيرة توالد الافكار المتكررة المألوفة وستبقى عاجزة عن اقتحام المستقبل وستكون مضطرة الى ممارسة القمع الذاتي تجاه نفسها لأنها لن يكون لديها شيء تقوله.

* * *

هذا هو القسم الثاني من ملف الاجتهاد حول الثقافة والسلطة في المرحلة الحديثة والمعاصرة، وهو يتضمن مقالات تمتد على مساحة القرنين التاسع عشر والعشرين. كما يتضمن مراجعات كتب وندوات.

«التحرير»